المادة الدراسية: الادب الاموي

المستوى الدراسي الثاني

عنوان المحاضرة : شعراء الزبيريين :عبيد الله بن قيس الرقيات

أ.د. محمد عبيد صالح

مدخل:

ظهر في صفوف الاشراف من أبناء كبار الصحابة معارضةٌ حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزير هذه المعارضة وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ومضى اليهم غير أنه قتل دون غايته فخلا الجو لأبن الزبير الذي عاد بمكة وقد أتخذ من قتل الحسين أداة للتشنيع على يزيد وثارت المدينة وأوقع بها يزيد وقعة الحرة المشهورة فاتسعت الجروح في الحجاز وبدا للعيان أن الامويين وإن كانوا قرشيين يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم وحقا ان الامويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز الى دمشق ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش بل اصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكمونها في رقاب الناس بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله

عليه وسلم وقد مضوا يلون الخلافة كما وليها يزيد لا بسلطان شرعي وإنما بسلطان السيف والقوة اذ ان يزيد لا يأتي أولا بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يفضلونه بسابقة ابائهم في الاسلام وبسيرتهم الفاضلة واتجه الجيش الذي نكب المدينة في وقعة الحرة الى مكة حيث يعود أبن الزبير وهبٍّ كثير من العرب حتى من الخوارج لذود عن البلد الحرام وضرب من حوله حصار غير ان الانباء جاءت بموت يزيد فرفع الحصار وعاد الجيش ادراجه وبدأ حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة فأبوه من كبار الصحابة المقدمين وأمه أسماء اخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وكان قوي الشخصية تقيا وشارك في فتوح افريقيا وسرعان ما انضم تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة واتبعته العراق ومصر وكذلك اتبعته خرسان بقيادة عبدالله بن خازم السلمي القيسي وولي بعد يزيد ابنه معاوية بعهد ولكنه توفي سريعا وبدا كأن حكم بني امية قد انتهى.

وظل أبن الزبير يقود الولايات التي أتبعته من مكة ولم يلبث مروان بن الحكم أن ظهر بالشام تسنده كلب والقبائل اليمنية وأوقع بقيس الشام وقعة مرج راهط المشهورة فخلصت له الشام ولم تلبث مصر أن استجابت له وولى عليها أبنه عبد العزيز وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفيانيين الى بيت المروانيين فان مروان لم يلبث أن توفي وخلفه ابنه عبد الملك وكان سياسيا

أريبا يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله وكان في ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثير من العرب ينصرفون عنه . وليس معنى ذلك انه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف أبن الزبير وإنما معناه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية أو قل رغبة به شح عنه ومع ذلك فقد وقف في صفه كثير من الشعراء .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء فلما ولى العراق لأخيه انهلت غيوثه على الشعراء فمدحه منهم كثيرون مثل أعشى همدان وغيره ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا انما يهمنا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة هاجيا لبني امية مؤلبا عليهم القبائل ولعل شاعرا لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات فهو شاعر الزبيريين لذلك ينبغي الوقوف عليه ومعرفة اخباره ونبذة عن اشعاره.

ابن قيس الرقيات:

نسبه وأخباره:

اختلف الرواة في أسمه هل هو عبيد الله أو عبدالله والأول أرجح لأن في اخباره له أخ أسمه عبدالله ولد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس أبن شريح بن مالك بن ربيعة النويعم بن أُهيب بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب. وأمه قتيلة بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة بن طريف بن عدي بن سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة.

ويظهر انه تحول من مكة الى المدينة واقام بها طويلا ولعل الذي دفعه الى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات ، وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على انه كان يحيى حياة لاهية في المدينة وفي أثناء ذلك كان ينظم مقطوعاته في الغزل ويترنم بها المغنون ويستحسنها الناس استحسانا شديدا ونراه يرحل الى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ويظهر انه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد ولم يلبث يزيد أن توفي وتحولت الجزيرة الى ميادين حروب بين قيس وتغلب واصطدمت عشيرته بعمير بن الحباب بطل قيس في بعض حروبه مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة الى فلسطين ولم يلبث أن تركها الى العراق حيث مصعب بن الزبير وكان

طبيعيا ان يجذبه اليه فقد رأيناه حنقا على بني أمية منذ موقعة الحرة يريد أن يقود الجيش ضدهم فيثأر لبني اخيه ويسبي نسائهم وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين فالخلافة ينبغي ان تكون في قريش روحا وواقعا عمليا بحيث تكون حاضرتها في الحجاز وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كلب واخوتها من قبائل الشام اليمنية التي اوقعت باهل المدينة وقعت الحرة المشؤمة .

ومن ثم كان إعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقا مخلصا وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية والرغبة الشديدة في أن ينقض حكمهم في الشام انقضاضا.

ومضى يطيل في ذكر الاماكن التي هجرها الامويون الى دمشق وربوع الشام منوها برجالهم وحسانهم من النساء وكأنه يأسى لهذا المصير الذي انتهت اليه قريش فقد تفرقت بلدانا وشيعا حتى طمع فيها الطامعون ويصرح بذلك فيقول:

حَبَّذا العيشُ حين قومي جميعٌ لم تفرِّق أُمورَها الأَهواءُ

قبل أن تطمع القبائل في مُل كِ قريشٍ وتَشمَتَ الأَعداءُ

ويمضي فيرد على الخوارج واشباههم ممن كانوا يرون أن تُنزع الخلافة من قريش وتُردّ الى العرب بل الى المسلمين جميعا:

أيها المشتَهِي فناءَ قريشٍ بِيَد الله عُمرُها والفناءُ

إن تودِّع من البلادِ قريشٌ لا يكن بعدهم لحيٍّ بقاءُ

فقريش هي عمود الخلافة ولو انها زالت عنها لسقط ركنها سقوطا لا يرتفع بعده ولا يلبث ان يتوجه بخطابه الى عبد الملك هاجيا:

قد عَمِرنا فَمُتْ بدائك غيظاً لا تميتنَّ غيرَك الأدواءُ

ويأخذ في الفخر بقريش وفضلها على الاسلام والخلافة فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجعفراً الطيار والزبير بن العوام حواريَّ النبي وأبا عبدالله ومصعبا ويشير الى انتصار مصعب على المختار الثقفي، ويعرض لما كان يزعم من انه يوحى اليه ويمدح مصعبا، فيقول:

إنما مصعب شهابٌ من الل هِ تجلَّت عن وجه الظَّلماءُ

مُلكهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا بهِ كبرياءُ

ويعـود الــى الافتخــار بقـريش ورجالاتهــا فــي الجاهليــة والاســلام ويفتخــر بيتهــا الحـرام الـذي يحـج اليـه النـاس مـن كـل فـج عميـق ويأسـى لحـرق جيـوش الشـام هـذا البيـت حـين حصـارها لابـن الزبيـر بعـد موقعـة الحـرة ويشـيد ببنـاء ابـن الزبيـر لـه بعـد هـذا الحصـار ولا يلبـث ان يـدعو دعـوة عنيفـة بحـرب عبـد الملـك وبنـي أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام وقتلو الحسين في كربلاء يقول:

كيــف نَــومي علــى الفِــراش ولمَّــا تَشــمَلِ الشَّــامَ غــارةٌ شَــعواءُ

تُــذْهل الشــيخَ عــن بَنِيــه وتُبــدِي عــن بُراهــا العقيلــةُ العَــذراءُ

أنــا عــنكم بنــي أُميــة مُــزوَ ر وأنــتم فــي نفســىَ الأَعــداءُ

إنَّ قَتلَــى بــالطَّفِّ قــد أوجعتنــي كــان مــنكم لــئن قُتِلْــتُم شــفاءُ

وهـذه هـي الانغـام السياسـية التـي كـان يوقعهـا علـى قيثارتـه الشـجية وكـان يضـيف اليهـا مـديحا لعبـدالله بـن الزبيـر وبيـان انـه احـق قرشـي بالخلافـة وكـان لايـزال يـذكر وقعـة الحـرة مضـيفا اليهـا وقعـة مـرج راهـط التـي هـزم فيهـا انصـار ابـن الزبيـر مـن القبائـل القيسـية متوعـدا عبـد الملـك بالغـارات ومشـيدا بمصـعب وشجاعته وكرمه وتقواه.

أمّـا غزلـه فيعـد أبـن الرقيـات فـي طليعـة شـعراء الغـزل المكيـين ولـو أنـه لـم يشـغل نفسـه بالمـديح والدعايـة للزبيـريين وخُلـصَ الغـزل علـى شـاكلة عمـر ابـن ابـي ربيعـة لمـا قصَّـر عنـه هـذا الفـن وقـد رأينـاه فـي مطلـع حياتـه يلـزم المغنـين والمغنيـات وكـان لـذلك اثـر واسـع فـي موسـيقى شـعره إذ تمتـاز بالنقـاء والصـفاء والعذوبـة حتـى فـي مدائحـه ومراثيـه ولـيس ذلـك فحسـب فإنـه مـن أكثـر الحجـازيين عنايـة بـالأوزان المجـزوءة والاخـرى القصـيرة وهـو مـن هـذه الناحيـة يطبـع شـعره بطوابـع الغنـاء التـي عاصـرته إذ نجـد عنـده حـلاوة الـنغم وخفـة الاوزان بحيـث تحمـل كـل مـا يريـد المغنـون والمغنيـات مـن انغـام وترنيمـات ومـن الامثلة على ذلك قوله:

رُقَـــيَّ بعيشِـــكم لا تَهجُرينـــا وَمِّنينـــا المُنَـــى ثـــم امطُلينـــا

عِـدينا فـي غَـدٍ مـا شـئتِ إنَّـا نُحِـبُّ وإن مَطلـتِ الواعـدينا

أغـرك أننـي لا صـبر عنـدي علـى هجـرٍ وأنـك تصـبرينا

ويـوم تبعـتكم وتركـت أهلـي حنـين العـود يتبـع القرينـا

ودائمـا يجـرى غزلـه علـى هـذه الصـورة مـن عذوبـة الالفـاظ ورشـاقة الالحـان وهـو لا يتغـزل بمـن سـمين باسـم رقيـة فحسـب بـل كـان يتغـزل بكثيـرات غـزلا يملـؤه

بالصبابة واللوعة وخاصة حين يكون غزله صادقا لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

سبب تلقيبه بهذا اللقب:

وإنما لقب عبيد الله بن قيس الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقية، منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب بن وهبان بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص وابنة عم لها يقال لها رقية، وامرأة من بني أمية يقال لها رقية. وكان هواه في رقية بنت عبد الواحد، وكان عبد الواحد ينزل الرقة. وإياه عنى ابن قيس بقوله:

ما خير عيش بالجزيرة بعد ما عثر الزمان ومات عبد الواحد

وله في الرقيات عدة أشعار يغنى فيها تذكر بعقب هذا الخبر. ومن غزله قوله:

حـــــبَّ ذاك الـــــدَّلُّ والغُنُـــــجُ والتـــــي فـــــي عينهـــــا دَعَـــــجُ[1]

والتـــــي إن حـــــدثتْ كذبـــــتْ والتـــــي فـــــي وعـــــدها خَلَـــــجُ[2]

وتـــــرى فـــــي البيـــــت صـــــورتها مثلمـــــا فـــــي البيعـــــة الســـــرجُ

خَبِّرونـــــي هـــــل علـــــى رجـــــلٍ عاشـــــقٍ فـــــي قُبلـــــةٍ حَـــــرَجُ

المصادر والمراجع:

- الأمـــالي فـــي الادب الاســـلامي. د. ابتســـام مرهـــون الصـــفار، المؤسســـة اللبنانية للكتاب الاكاديمي بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١٤.
- تـــاريخ الأدب العربـــي العصـــر الاســـلامي، د. شـــوقي ضـــيف، دار المعارف، مصر،ط١١.

[1] الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل والمزح . الدعج: شدة سواد العين.
[2] الخلج الاضطراب وعدم الثبات على حال